

تداخل الأجناس الأدبية بين القديم والحديث

الباحث: طارق تركي

جامعة: سيدي. بلعباس

بين محمد غنيمي هلال في كتابه (الأدب المقارن)، أن النقاد على مرّ العصور وصفوا الأدب بأنه أجناس أدبية، فقال: "لا يزال النقاد في الآداب المختلفة على مرّ العصور ينظرون إلى الأدب بوصفه أجناساً أدبية، أي قوالب عامّة فنيّة، تختلف فيما بينها ... حسب بنيتها الفنيّة، وما تستلزمه من طابع عام"⁽¹⁾

وقد استخدم النقاد العرب القدامى أيضاً مصطلح الجنس الأدبي كالجاحظ (ت. 868هـ) في كتابه (البيان والتبيين) في سياق حديثه عن كلام خطباء العرب ردّاً على الشعوبية قائلاً: "ومتى كان اللفظ أيضاً كريماً في نفسه متحيزاً من جنسه"⁽²⁾. كما أطلقه ابن طباطبا (ت. 933هـ) على الشعر في كتابه (عيار الشعر) قائلاً: "والشعر على تحصيل جنسه ومعرفة اسمه متشابه الجملة"⁽³⁾. كما أطلقه الخطابي (ت. 998هـ) على سائر أجناس الكلام الذي يقع منه التفاضل⁽⁴⁾. أما ابن رشد (ت. 1198هـ) فقد قسم أجناس القول الخطبي في كتابه (تلخيص الخطابة) إلى ثلاثة أقسام، فقال: "أجناس القول الخطبي ثلاثة: مشوري، ومشاجري، وتثبتي"⁽⁵⁾

فالجنس الأدبي هو "التجسيد العيني لمفهوم الأدب ووظيفته، ويظلّ مفهوم الأدب مجرد افتراض نظري، إن لم يقيض له أن يتعين في أنواع واضحة الملامح متميزة الخصائص متلوّنة السمات"⁽⁶⁾. فالأدب "يتوزّع إلى أنواع تتشابه وتختلف حسب بنية كل نوع، وبهذا الاعتبار فالنوع في مجال الأدب شكل يشترط فيه؛ ليقوم كنوع أدبي تفرّد بسمات أسلوبية خاصّة"⁽⁷⁾. ومن النقاد الذين استخدموا مصطلح (النوع) في النقد العربي القديم الرّماني (ت. 996هـ) فقال: "فإنّ العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة: منها الشعر، ومنها السّجع، والخطب"⁽⁸⁾. وأيضاً القاضي الجرجاني (ت. 1001هـ) في كتابه (الوساطة بين المتنبّي وخصومه)، إذ نصّح الشاعر بأن لا يقوم "بإجراء أنواع الشعر كلّه مجرى واحد"⁽⁹⁾، وابن رشيق القيرواني (ت. 1063هـ) في كتابه (العمدة) قائلاً: "كلام العرب نوعان: منظوم ومنثور"⁽¹⁰⁾.

وقد ذكر رشيد يحيوي في كتابه (مقدمات في نظرية الأنواع الأدبية)، مجموعة من الكلمات تستخدم بمعنى (الجنس) وهي "صنف، نوع، نوع، ضرب، أسلوب، طريقة"⁽¹¹⁾. كما ربط بين النمط والنوع والنص قائلاً: "النمط هو النموذج والمثال الذي يختزن مجموعة من السمات الأسلوبية. والنوع هو المتصرف بطريقة أو بأخرى في تلك السمات. أمّا النصّ فهو المنجز أو المظهر الملموس للنمط والنوع"⁽¹²⁾

فرشيد يحيوي استخدم مصطلح الأنواع قائلاً: "الأنواع الكلاسيكية المعروفة كانت هي: الملحمة، التراجيديا، الغنائي، الكوميديا، السّاتيرية يضاف إليه حالياً الرواية، والقصة القصيرة"⁽¹³⁾. واستخدم أيضاً مصطلح الأنماط، فقال: "وفي النقد العربي يمكن أن نتكلّم عن أنماط: الشعر، الخطابة، الرّسالة، السّرد، باعتبار أهميتها فيه"⁽¹⁴⁾

والواضح ممّا سبق أنّ النّقاد قديمًا وحديثًا قد استخدموا مصطلح الجنس الأدبي مرادفًا للنوع الأدبي، وإن كان الجنس أعمّ وأشمل من النوع. وسأقوم في هذه الدّراسة باستعمال مصطلح الجنس الأدبي باعتباره مرادفًا لمصطلح النوع الأدبي.

أمّا الجنس الأدبي فيتشكل كما بيّن عادل الفريجات "من خلال مجموعة من نصوص مترابطة، تنتظمها خصائص معيّنة، تمكن النّاقّد الأدبي من استنباطها وجعلها قواعد وأسسًا لنصوص لم تولد بعد، وعليه فإنّ الجنس الأدبي يغدو بعد زمن من تراكم نماذجه ونصوصه كونًا مجردًا، ففي حين تغدو النّصوص المنضوية تحت قواعده وطقوسه كونًا ملموسًا، وبعبارة أخرى يغدو الجنس نصًّا غائبًا والنموذج المجسّد له نصًّا حاضرًا، ومن هنا يمكن للمرء أن يرى الجنس الأدبي زمرة من الأعمال الأدبيّة تمتاز بخصائص أسلوبية محدّدة، أو صيغة من صيغ التّخيل فيها مزايا وخصائص"⁽¹⁵⁾.

يعدّ تداخل الأجناس الأدبيّة أمرًا قديمًا على المستويين الإبداعي والنّقدّي، فالقصة الشّعريّة تملك حضورًا في التّراث الشّعري العربي، والمقامات والسّير الشعبيّة وقصة ألف ليلة وليلة وغيرها، إذ تجمع بين تقنية السّرد والشّعر، ولا تقتصر إشكالية التّداخل على حشد أجناس أدبيّة في فضاء أدبي مركّب، وإنّما تمتدّ إلى تشظي الجنس الواحد إلى أجناس متجانسة متناغمة في جيناتها في كتاب واحد نحو تشظي القصة القصيرة إلى قصة قصيرة، وقصة قصيرة جدًّا وأقصوصة، ما يضع إشكالية التّداخل في مسارين: مسار خارجي يشمل تداخل أجناس أدبيّة مختلفة، ومسار داخلي يشمل تداخل أجناس أدبيّة متجانسة⁽¹⁶⁾ فبعض الأجناس تتقارب كثيرًا، كالخطابة والرّسالة؛ لاشتراكهما في السّمات الأسلوبية⁽¹⁷⁾

ويمثّل تداخل النّصوص منهجًا نقديًا، اختلف النّقاد في تعاملهم معه، فمنهم من عالجه من خلال منهج سيميائي جديد كجوليا كرسيفا⁽¹⁸⁾، ومنهم من عالجه من خلال شاعريّة النص كجيرار جينيت. أمّا الآخرون فقد عالجه من خلال الألسنيّة البنيويّة، أو التّحليل النفسي، أو التفكيكيّة، أو السّيموطيقا

وقد جاء التّداخل نتيجة تطوّر الأجناس الأدبيّة كالشّعر الذي تطوّر إلى أنواع أخرى كشعر الفتح، والشّعر السّياسي وغير ذلك، ثمّ قصيدة الشّعر الحر، وقصيدة النّثر. كما تتوّع النّثر إلى الخطابة التي تطورت إلى المقالة، والمسرحيّة، والرّواية، والقصة. وهذه الأجناس الجديدة لم يكن يعرفها الأدب العربي، ولكنّها كانت تطوّرًا لبعض الأجناس، يقول تودورف في هذا المجال: من أين تأتي الأجناس؟ فالجنس الجديد عنده هو دائمًا تحويل لجنس أو عدّة أجناس أدبيّة قديمة عن طريق القلب أو الرّخرفة أو التّوليف⁽¹⁹⁾

وتعدّ الرّواية أكثر الأجناس الأدبيّة الحديثة قابليّة لامتصاص الأجناس الأدبيّة الأخرى؛ بسبب مساحة الحرّيّة المتوافرة في تقنية السّرد، وتفاعل عناصر البناء الفني فيها مع الخصائص الفنّيّة لأنواع الأدبيّة الأخرى⁽²⁰⁾ وقد بيّن عز الدين المناصرة أنّ مبدأ التّجانس بين الأنواع الأدبيّة أمر لا مفرّ منه، وهو أمر مرغوب فيه من أجل تقوية الجنس العام⁽²¹⁾. فالأدب المعاصر يؤمن بقيمة الحركة والتّحول، ولا يؤمن بالثّبات والسّكون⁽²²⁾ وقد بيّن محمد غنيمي هلال أنّ اتّصاف الأجناس الأدبيّة في العصر الحديث بالطابع الوصفي⁽²³⁾ قد ساعد على إمكانيّة اختلاط جنس أدبي بآخر؛ ليؤلّفا جنسًا جديدًا كما في المأساة اللاهية، وبذلك يبقى الباب مفتوحًا على

مصراعيه لخلق أجناس أدبية جديدة. فالأجناس تمثل مجموعة من الاختراعات الفنية الجمالية يكون على بيّنة منها، ولكنه قد يطوّعها لأدبه، أو يزيد فيها، وهي دائماً معللة مشروحة لدى القارئ الناقد⁽²⁴⁾

يبدو ممّا سبق أنّ مصطلح تداخل الأجناس الأدبية مصطلح غير مستقر. فقد رأت مها القصراري في بحثها نظرية الأنواع الأدبية في النقد الأدبي نظرية الرواية نموذجاً، أنه لم يعد هناك حدود فاصلة واضحة بين الأجناس الأدبية، إذ لا بد من نبذ التمسك بأسس التفرقة الشكلية بينها، والتميز بناء على وظائف الأدب في أجناسه المختلفة⁽²⁵⁾، فهي تشترك فيما بينها "بخصائص عامّة استمدتها من انتمائها إلى أصل واحد هو الأدب الذي مثلت البلاغة قمته وطموح أنواعه على اختلافها"⁽²⁶⁾. كما ذكرت أيضاً الطروحات التي توجب حتمية التداخل بين الأجناس الأدبية⁽²⁷⁾، والنتائج المترتبة على ذلك، وموقف النقد والدارسين منه⁽²⁸⁾

فالتداخل عندها مبني على مبدأ انهيار الترتيب بين الأنواع الأدبية بحيث لم يعد الشعر في رأي بعض الباحثين المحدثين سيّداً على بقية الأنواع الأدبية، ويعدّ صعود الرواية على حساب بقية الأنواع الأدبية وفق بنية التداخل والتعدد والتشظي، مؤشراً على استبدال تكافؤ الصيغ، والأنواع الأدبية بتراتبها⁽²⁹⁾

فالتحولات والتغيرات التي تحدث داخل جنسي الشعر والنثر ترتبط عادة بهبوط نوع ما، وصعود آخر حسب ما تقتضيه حركة الإنسان في الزمان والمكان⁽³⁰⁾. "فالمجتمع يجتهد في خلق أشكال جديدة كلما تطوّر، تكون منسجمة مع ميوله. أما الأنواع التي تموت فتصبح غذاءً أو سماداً للأخرى الجديدة"⁽³¹⁾. فالجنس الأدبي "متطور متحوّل بما يحصل في أسلوبه من تغير تحت تأثير السياق الخارجي التاريخي، والاجتماعي، والثقافي، والأيدولوجي مع الأخذ بعين الاعتبار الاستقلال النسبي للبنية الثقافية، وجدليتها مع الواقع، وجدليتها الداخلية. فالنوع قد يحتفظ بتراتب بنياته حتى رغم تغير السياق الخارجي"⁽³²⁾

فمرونة حدود الجنس الأدبي تدفع إلى التساؤل عن المساحة المتاحة للاختراق، فقد يصل الاختراق حدّاً يؤدّي إلى تحوّل النصّ عن جنسه، وإلى امتداد النصّ نحو جنس آخر، فتكون النتيجة اجتماع جنسين في نص واحد⁽³³⁾، فذلك يرجع إلى المبدأ "التوافق بين القاعدة والخرق، فبقدر ما يكون الخرق متاحاً بقدر ما يجب احترام الإطار العام للقاعدة؛ لأنّ الخروج بالكلية عن القاعدة يلغي مبدأ الخرق ومبدأ القاعدة معاً"⁽³⁴⁾. كما أنّ التداخل بين الأجناس الأدبية يعين الجنس الأدبي على التطور والتجديد. أمّا إذا بلغ التداخل حد الإقحام والتكلف والتصنع، فهو منبوذ مرفوض⁽³⁵⁾

أمّا أشكال تداخل الأجناس الأدبية فهي ثلاثة أقسام: الأول تفرضه طبيعة الأدب، ولا يكون مقصوداً من منتج النصّ؛ لأنه محكوم بالآليات الداخلية للعائلة النصية الأدبية، فقد نجد عناصر نوعيّة دخيلة على النوع المهيمن الذي تنتمي إليه. ففي القصة القصيرة ثمة حضور لعناصر مسرحيّة، كما أنّ في الرواية حضوراً مسرحياً وشعرياً⁽³⁶⁾. فالذي يُميّز الشكل هو المحافظة على الخصوصية النوعية للنص، واحتوائه على عنصر نوعي مهيمن (بنية مهيمنة فالنص القصصي نتعامل معه كقصة، وإن استعان بعناصر مسرحيّة)⁽³⁷⁾

أمّا الشكل الثاني من التداخل فإنّه يقوم على القصديّة المسبقة للمؤلف، والغاية منها إضفاء روح الجدّة على النصّ من خلال الاستعانة بعناصر نوعيّة مختلفة تخرجه عن التّميّط النوعي، وتكفل له خصوصيّة في الجنس

الذي ينتمي إليه كاستعانة الروائيين وكتاب القصة بأشكال نوعية من التراث السردى كالمقامات وأدب الرحلات وغيرها⁽³⁸⁾

أما الشكل الأخير من أشكال التداخل فيعدّ " انقلاّباً على مبدأ النوع الأدبي، ويمثّل حالة من تمييع النظام، وغايته الوصول إلى نصّ جديد بلا هوية يرفض التتويج، ويعدّه ضرباً من القيد، وهو في الغالب الأعمّ شكل قصدي"⁽³⁹⁾.

يتبيّن مما سبق أنّ الشكل الأول والثاني منسجمان مع الائتلاف القائم بين القاعدة والخرق، على حين يقع الشكل الثالث في إطار رفض مبدأ (القاعدة والخرق)، والولاء فقط لآلية؛ الخرق التي لا تعترف بالقاعدة ولا بالنظام، وتبدو كأنّها نتاج ثقافة وصفية لا تؤمن بالثوابت⁽⁴⁰⁾؛ لذا يمكن القول أنّ الأجناس الأدبية غير ثابتة في حركة دائبة تتغيّر في اعتباراتها الفنية من عصر إلى عصر، ومن مذهب أدبيّ إلى مذهب أدبيّ آخر. وفي هذا التّغيير قد يفقد الجنس الأدبي طابعه الذي كان يعدّ جوهرية فيه قبل ذلك، فالمسرحية في النّقد الكلاسيكي كانت شعراً، ثمّ صارت في العصر الحديث نثراً⁽⁴¹⁾

بناء على ما تقدم فإن فكرة التجنيس الأدبي ترتبط أشدّ الارتباط بمفهوم الإبداع من جهة، وبمفهوم النّقد من جهة ثانية، وبمفهوم تاريخ الأدب من جهة ثالثة⁽⁴²⁾. والواضح أنّ الخلط بين الأجناس الأدبية لم يحط أو يقلل من قيمة الكتابة الأدبية. فقد أصبح المزج قانوناً طبيعياً في أي تحوّل أدبيّ، إذ لا توجد أنواع ذات استقلال ذاتي⁽⁴³⁾. لذا أخلص إلى القول أنّ إمكانية التداخل بين الأجناس الأدبية قائمة، ولكن في الحدود التي تتضمن المحافظة على هوية كل جنس.

الهوامش

- (1) محمد غنيمي، (الأدب المقارن)، دار العودة ودار الثقافة، (بيروت - لبنان)، 1987م، ط5، ص 13، ص 137، وينظر: يحيوي، رشيد، (مقدّمات في نظرية الأنواع الأدبية)، أفريقيا الشرق، (الدار البيضاء - المغرب)، 1991م، ط1، ص6
- (2) الجاحظ، أبو عثمان عمرو: البيان والتبيين: تحقيق عبد السلام هارون، ط5، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1985م، ص2
- (3) ابن طباطبا، (عيار الشعر)، تح: طه الحاجري ومحمد زغول سلام، المكتبة التجارية، (القاهرة - مصر)، 1956م، ص7
- (4) الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد، (بيان إعجاز القرآن، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تح: محمد خلف الله ومحمد زغول سلام، دار المعارف، (مصر)، 1968م، ص22
- (5) ابن رشد، (تلخيص الخطابة)، تح: عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة - مصر)، 1960م، ص: 29
- (6) وفاء إبراهيم يوسف زيادي، (الأجناس الأدبية في كتاب الساق على الساق في ما هو الفرياق)، مذكرة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، (نابلس - فلسطين)، 2009م، ص: 36. نقلا عن: جندية، بتول أحمد (الأنواع الأدبية التراثية، رؤيا حضارية، تداخل الأنواع الأدبية، مؤتمر النقد الثاني عشر، ص: 195/1
- (7) يحيوي، رشيد، (مقدّمات في نظرية الأنواع الأدبية)، ص10
- (8) الرّماني، أبو الحسن علي بن عيسى: النكت في إعجاز القرآن الكريم، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص (102
- (9) الجرجاني، علي بن عبد العزيز: الوساطة بين المتنبّي وخصومه، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، دار القلم، (بيروت، لبنان)، 1966م، ص24

- (10) القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق، (العمدة)، مطبعة حجازي، (القاهرة- مصر)، 1925م، ط1، ص:7
- (11) يحيوي، رشيد، (مقدمات في نظرية الأنواع الأدبية)، ص: 7
- (12) المرجع السابق، ص: 9
- (13) المرجع نفسه، ص: 6
- (14) المرجع السابق، ص: 8
- (15) الفريجات، عادل، (الأجناس الأدبية تخوم أم لا تخوم)، مجلة علامات في النقد، ع 38، مج 10، 2006م، ص: 248.
- وينظر: محمد فكري، (الأدب من المنطوق إلى المكتوب، مقدمة في المفاهيم)، مجلة علامات في النقد، ع 23، مج 6، 1997م، ص: 395
- (16) ينظر: عتيق، عمر عبد الهادي : تداخل الأنواع الأدبية في رواية) عكا والملوك (للروائي أحمد رفيق عوض، تداخل) 1034/الأنواع الأدبية، مؤتمر النقد الدولي الثاني عشر، 1
- (17) ينظر: يحيوي، (رشيد :مقدمات في نظرية الأنواع الأدبية)، ص: 8
- (18) جوليا كرسيتيفا :ولدت في بلغاريا عام 1941 ، ومن مؤلفاتها كتاب: (علم النص)، وقد شكلت أبحاثها المترجمة مدخلا فعلياً لقراءة التحليل السيميائي منها :أبحاث من أجل تحليل سيميائي، النص الروائي، ثورة في اللغة الشعرية، رحلة العلامات، لغات متعددة، حكم الرعب. ينظر :كريستيفا، جوليا، (علم النص)، تر: فريد الزاهي، دار توبقال، (الدار البيضاء- المغرب)، 1991م، ط1، ص: 5،6
- (19) وفاء إبراهيم يوسف زيادي، (الأجناس الأدبية في كتاب الساق على الساق في ما هو الفرياق)، ص: 49. نقلا: ينظر: إبراهيم، شكري بركات، (تداخل الأنواع الأدبية في المقال النقدي)، تداخل الأنواع الأدبية، مؤتمر النقد الدولي الثاني عشر، ص:1/535
- (20) وفاء إبراهيم يوسف زيادي، (الأجناس الأدبية في كتاب الساق على الساق في ما هو الفرياق)، ص: 50. نقلا عن: عتيق، عمر عبد الهادي، (تداخل الأنواع الأدبية في رواية " عكا الملوك" للروائي أحمد رفيق عوض)، مؤتمر النقد الدولي الثاني عشر، ص: 1/1034
- (21) ينظر: المناصرة، عز الدين، (علم التناص المقارن)، دار مجدلاوي لنشر والتوزيع، (عمان- الأردن)، 2006م، ط1، ص: 72
- (22) وفاء إبراهيم يوسف زيادي، (الأجناس الأدبية في كتاب الساق على الساق في ما هو الفرياق)، ص: 50. نقلا عن: ينظر: غوادرة، فيصل حسين طحيمر، (تداخل الأدب مع الفنون الأخرى)، تداخل الأنواع الأدبية، مؤتمر النقد الثاني عشر، ص: 2/161
- (23) ينظر: هلال، محمد غنيمي :الأدب المقارن، ص: 139
- (24) ينظر :المرجع السابق، ص: 140
- (25) وفاء إبراهيم يوسف زيادي، (الأجناس الأدبية في كتاب الساق على الساق في ما هو الفرياق)، ص: 50. نقلا عن: ينظر : القصراري، مها حسن، (نظرية الأنواع الأدبية في النقد الأدبي نظرية الرواية نموذجاً)، تداخل الأنواع الأدبية، مؤتمر النقد الثاني عشر، ص: 2/795
- (26) وفاء إبراهيم يوسف زيادي، (الأجناس الأدبية في كتاب الساق على الساق في ما هو الفرياق)، ص: 51. نقلا عن: جندية، بتول أحمد، (الأنواع الأدبية التراثية)، م.م.س، ص: 1/201
- (27) وفاء إبراهيم يوسف زيادي، (الأجناس الأدبية في كتاب الساق على الساق في ما هو الفرياق)، ص: 51. نقلا عن: ينظر : القصراري، مها حسن، (نظرية الأنواع الأدبية في النقد الأدبي نظرية الرواية نموذجاً)، م.م.س، ص: 2/796
- (28) ينظر: المرجع السابق، ص: 2/797، 805
- (29) ينظر: المرجع السابق، ص: 2/800

- (30) ينظر: المرجع السابق، ص: 737/2
- (31) يحيائي، رشيد، مقدمات في نظرية الأنواع الأدبية، ص: 99
- (32) المرجع السابق، ص: 100
- (33) وفاء إبراهيم يوسف زيادي، (الأجناس الأدبية في كتاب الساق على الساق في ما هو الفرياق)، م.م.س، ص: 52. نقلا عن: غوادة، فيصل حسين طحيمر، (تداخل الأدب مع الفنون الأخرى)، م.م.س، ص: 159/2
- (34) ينظر: المرجع السابق، 159/2
- (35) ي وفاء إبراهيم يوسف زيادي، (الأجناس الأدبية في كتاب الساق على الساق في ما هو الفرياق)، م.م.س، ص: 52. نقلا عن: القسراوي، مها حسن، (نظرية الأنواع الأدبية في النقد الأدبي)، م.م.س، ص: 801/2
- (36) وفاء إبراهيم يوسف زيادي، (الأجناس الأدبية في كتاب الساق على الساق في ما هو الفرياق)، م.م.س، ص: 52. نقلا عن: غوادة، فيصل حسين طحيمر، (تداخل الأدب مع الفنون الأخرى)، م.م.س، ص: 161/2
- (37) ينظر: المرجع السابق، 161/2
- (38) ينظر: المرجع السابق، ص: 161/2
- (39) وفاء إبراهيم يوسف زيادي، (الأجناس الأدبية في كتاب الساق على الساق في ما هو الفرياق)، م.م.س، ص: 53. نقلا عن: ينظر: غوادة، فيصل حسين طحيمر، (تداخل الأدب مع الفنون الأخرى)، م.م.س، ص: 162/2
- (40) ينظر: المرجع السابق، ص: 162/2
- (41) ينظر: هلال، محمد غنيمي، (الأدب المقارن)، ص: 138
- (42) الفريجات، عادل، (الأجناس الأدبية تخوم أم لا تخوم)، علامات في النقد، م.م.س، ص: 248، 249
- (43) ينظر: يحيائي، رشيد: مقدمات في نظرية الأنواع الأدبية، ص: 24